المكانة التجارية والبحرية لطرابلس الغرب في العصر الوسيط

حازم وطن
هندي
باحث أكاديمي

من المعروف ان مدينة طرابلس الغرب كانت واحدة من ابرز المدن الرومانية المعروفة بتاريخها القديم حيث توالت قوى عديدة للسيطرة عليها اسوة ببقية المدن البحرية الواقعة على الساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط ،من فينيقيين الى جرمانتيين وروما ن ،و وندال و بيزنطة ، وأخيراً العرب المسلمون . غير ان الفتح الاسلامي لبلدان المغرب العربي جعل تلك المدن تتوجه نحو المشرق الاسلامي وليس الى شمال حوض البحر الابيض المتوسط حيث روما و مرسيليا في تجارتها ، أي ما اطلق عليه بيرين (تحطيم وحدة حوض البحر المتوسط) من قبل الإسلام.(1)

منذ ان فتح عمرو بن العاص مدينة طرابلس الغرب في عام 23هـ / 642 م استمرت هذه المدينة في عصورها الاسلامية المختلفة لتمارس دورا تجاريا بارزا اكثر من دورها السياسي في الحوض الغربي من ذالك البحر لاسيما صقليه والمدن الإيطالية الأخرى . على الرغم من فترات التوترات العسكريه التي عرفها ذلك البحر بسبب محاولات العرب لبسط نفوذهم السياسي والعسكري هناك .

يبدو ان العرب الفاتحين لطرابلس الغرب لم يتمكنوا من فتح المدينة بسهولة لانها كانت محاطة باسوار حصينة كأية مدينة رومانية وساحلية في الوقت ذاته , وهذا ما اكدته الروايات التاريخية التي ذكرت: (...وعلى مدينة

طرابلس صخر جليل البنيان , وهي على شاطيء البحر .... حتى نزل ((عمرو بن العاص)) القبة فحاصرها شهرين لا يقدر منهم على شيء, فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم مع سبعه نفر, فجمعوا غرب المدينه واشتد عليهم الحر ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ....). (2)

ومن هذه الروايه يبدو واضحا ان العرب الفاتحون حاصروا المدينه لمده شهرين وذلك لتحصيناتها المعروفة ,ودفاع حاميتها البنزنطيه ,ولم تذكر المصادر اية معلومات عن دفاع المدينه لمدة شهرين ,ولم يتمكنوا منها الابمساعدة احد السكان من بني مدلج .يبدو ان الفاتحين لم يتركوا اية قوة عسكريه في المدينة بعد انسحابها منها مما ادى الى خروج سكانها على الحكم الاسلامي ,حيث عاد اليها المسلمون بعد ثلاث سنوات بقيادة عبد الله بن أبي سرح الذي اعاد فتحها واخضغها في عهد الخليفه عثمان بن عفان (رض) في الحملة المعروفة بحملة العبادله ,حيث وجد سفنا للروم راسيه هناك .(3)

ويضيف التجاني في رحلته :

((ثم جدد بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على افريقة في آخر دولة بني أمية سنه 132هـ , وتاخر بناؤه من جهة البحر الى ولاية هرثمه بن أعين والي الرشيد سنه 180 هـ , ثم زاد في اتفانه ورفع بنائه من جهة البر والبحر معا أبو الفتوح زياد الصقلي متولي طرابلس سنه 345 هـ)).(4)

وبعد أن استقر العرب الفاتحين باقليم افريقيا الدنيا (طرابلس الغرب وما جاورها) أنتشر الإسلام بين السكان الأصليين مع نهاية القرن الاول الهجري ,واستعادت البلاد استقرارها ,وبدأت طرابلس الغرب تنهض اقتصاديا مرة أخرى عندما اهتم الفاتحون بالمشاريع الزراعيه وحفر الابار, وتنميه الثروة الزراعية والصناعات ذات العلاقة بها كإنتاج زيت الزيتون, وانتاج العسل والتمور وغيرها الى جانب الصناعات التقليديه كالأكسية الثمينة , والصناعات الجلدية والأواني الفخارية , واستخراج الملح الذي استمر انتاجه حتى فترات متاخره من تاريخ المدينة حيث ذكر ابن حوقل: ....." وبها أسواق حافلة جامعه ,وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود ,وحولها انباط ....وهي كثيره الثمار والخيرات ,وبها بساتين جليله في شرقها , وتتصل بالمدينه سبخه كبيره يرفع متنها الملح الكثير..."(5)

وتشير الرواية أعلاه إلى الأسس الاقتصادية لمدينه طرابلس الغرب حيث كانت مدينه تجاريه , واسواقها منظمه تنظيما دقيقا , ويعين على كل سوق شخص مسؤول عن استفياء الضرائب من أصحاب التجارات (المحتسب) وحصر البضائع الوارده من خارج المدينة, ويكون هذا مسؤولا امام والي او حاكم المدينة .

بالاضافه لذلك ,كان الموقع الاستراتيجي للمدينه جعلها احدى مراكز التبادل التجاري المهمه مابين اقتصاديات حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا وتجارة الصحراء الأفريقية جنوبا ,إذا عرفنا أنها محطة نهائيه للقوافل الصحراوية , وكذلك القوافل المتوجه نحو المدن التونسيه ,واحدى محطات قوافل الحج المغربي .(6)

تلك القوافل ,كما سنرى ,كانت تنقل الى المدينه عبر اقليم فزان المعروف لسلعه المربحة من أواسط أفريقا كالذهب والياقوت والحجر القرطاجي والجلود والعاج وخشب الابنوس , وحجر العقيق ...(7)

ليتم جمعها في المدينه حيث يتولى تجار المدن الإيطالية ومنذ العصور القديمه والوسطى المبكره نقلهامن هناك الى اسولق بلدان اوربا الوسطى والغربية , آذ كان الإغريق يأتون إلى طرابلس لشراء زيت الزيتون الذي كانت تشتهر به المدينه واقليمها ويدفعون مقابل ذلك الزيت النقود الذهبية التي كان الإقليم بأمس الحاجة إليها.(8)

ارتبطت طرابلس بشبكه من طرق القوافل التجارية المعروفة منذ العصور القديمه واستمرت طيلة العصور الوسطى وحتى العصور الحديثه عندما اختارها العديد من الرحاله والمستكشفين الاوربين مثل ليون، ودونهام، وكلابرتون، ومارث.....الخ , للوصول الى قلب القاره الافريقيه حتى ان اولئك المستكشفين اطلقوا على طرابلس الغرب اسم ((بوابة الصحراء)) (9)

ولعل ابرز تلك الطرق التي كان يسلكها التجار الطرابلسيون هي:

1. طريق القوافل المؤدية إلى كانو وساكوتو في السودان الاوسط .يلعب تجار مدينه غدامس دوراً بارزاً في السيطرة على تجارة هذا الطريق ,ومن ابرز محطاته التجاريه واحات غات ,ومرزق,وآير وصولا الى كانو حيث تقوم قبائل ازقر وهقار والطوارق بقيادة تلك القوافل التجارية.(10)

2. طريق برنو الذي يتوجه من طرابلس الى مرزق مباشرة والواحات الجنوبية شرجهي ثم بيلما مركز كاوار بعد ذلك المحطات النهائية الواقفة على بحيرة تشاد مثل وجيغمش وكوكا . تقطع القوافل الصحراوية هذا الطريق الاقصر والاسهل الى افريقيا الوسطى في ستة شهور ذهابا وإيابا.
3. طريق وادي وهذا الطريق ثانوي بالنسبة لتجار طرابلس ويلتقي مع الطرق السابقة في محطات صحراوية عديدة لأنه يبدأ من بنغازي نحوولحة الكفرة جنوبا ، ماراً يأ جرابيا ،وأوجله،ثم الكفرة ومنها الى تشاد والسودان . ويلتقي مع الطرق الاولى في واحة مرزق التي ظلت لفترات طويلة عاصمةاقليم فزان التي وصفها الحشائشي بأنها محط رحال القوافل الصحراوية والسودانية ومنتصف الطريق لمن قدم من طرابلس قاصدا برنيو(11)

جعلت تلك الطرق من طرابلس الغرب مركزا تجاريا مهما بين المدن الرئيسية الواقعة على الساحل الجنوبي لحوض الابيض المتوسط يصفها البكري في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري لها اسواق جامعة(12) ويوضح ذلك ابن حوقل بقوله" وكان لها في بعضها أسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها الى داخل السور ... وبها الجهاز الكبير من الصوف المرتفع وطبقات الأكسية الفاخرة الرزق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة الى مراكب تحط بها ليلا ونهارا... الخ"(13) ويضيف الحشائشي البعد الأوربي لتجارة طرابلس عند وصفه لاسواقها واهم سلعها المتداولة يقول:

" لهم متجر عظيم مع اهل السودان من برنو ووادي وغات والبلد القديم بناؤه قديم على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس الا اماكن الافرنج فانها على الشكل الاوربي وياتيها من اوربا أغلب السلع التي تاتي الى بلد تونس ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر والليمون الحامض والحلو والفلفل الاحمر والحناء وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وهذه السلع الخارجية ليس عليها ضرائب دولية الا الشيى القليل اما السلع البرية القادمة من السودان فلا تؤدي شيى من الضرائب وغالبا تجارها من اهل البلد وبعض المالطيين واليهود..."(14)

وتؤيد أوراق الجنيزة من القرن الحادي عشر ماذكره الحشائشي حيث يذكر جواتينن أن كشوف الحسابات من تلك الاوراق تذكر ان السلع المرسلة من طرابلس بحرا الى تونس كالحنة والنيلة , ومن هناك الى بالرمو عاصمةجزيرة صقلية مع كميات ضخمة من الاكسية والجلودوالمماسح(قماش خاص بالسيدات) ، وارسلت تلك السلع مع قافلة ابي شجاع اللواتي ...))(15)

غير أن تلك الأدلة لا تشير بوضوح إلى سلعتين رئيسيتين في التجارة الطرابلسية وهما زيت الزيتون الذي كان معروفاً منذ عصر الإغريق كما ذكرنا , والرقيق السوداني الذي كانت تجارته في المدينة بيد اليهود في الغالب.

مما لاشك فيه ان القرطاجيين قد استخدموا الزنوج في زراعة اراضيهم الواسعة , وكانوا يتاجرون بالرقيق مع اسواق جزر البليار التي مارست دوراً بارزاً كوسيط في هذا المجال . وليس من العسير ان نعرف مدى استخدام القرطاجيين للرقيق من الزنوج .كما اظهرت المدافن القرطاجية العديدمن الجماجم ذات السمات الزنجية , والجيش القرطاجي الذي غزا صقلية في القرن الخامس قبل الميلاد كان يضم عددا من الزنوج . ولذلك فمن المحتمل جداً , كانت قرطاجة تستورد الرقيق من فزان اقرب محطة تجارية لها مع الصحراء الافريقية (ارض الجرمانيتيين).(16)

ويبدو ان الحال استمر كذلك في الفترات اللاحقة ," إذ كان التجار العرب ينجذبون الى فزان وان كانوا من اقليم خراسان, بسبب تجارة الرقيق".(17)

وتشير وثائق كتاب العدول في برشلونة عاصمة اقليم قطالونيا التي درستها المؤرخة الفرنسية A.CARRIER الى كون طرابلس الغرب سوقاً للاسرى المسيحيين الذين يجلبون إليها عن طريق القرصنة البحرية , فتذكر ان التاجر القطالوني خواكيم JACOME وزوجته كاترينا ساردیل اشتروا في طرابلس الغرب سنة 1442 م أمة عمرها 35 سنة بسعر 37 ليرة حيث بقيت في البيت لاستخدامها للاغراض العائلية واشترى كذلك خواكيم اثنين من الاسرى العبيد وهم الونسو وعمره 24 عاماً ليرة في عام 1437 م , والاخر المسمى سلفادور وعمره 13 عاماً بسعر 50 ليرة في عام 1441 م . وتشير اسماء هؤلاء العبيد الى كونهم مسيحيين .(18)

وعلى الرغم من تلك الاهمية التجارية للمدينة , غير انها كانت تابعة الى تونس التي وصفها جواتينن بانها ((محور دائرة حوض البحر المتوسط)) التجارية في الفترة 1000 - 1150 م , اذ كانت ترتبط بالاسكندرية من جهة وبالمدن الايطالية من جهة اخرى وتستخدم كمحطة نهائية لتجارة القوافل البرية مع طرابلس , ولذلك احتلت المدينة مركزاً تجارياً ثانوياً في حوض البحر المتوسط كما توضحه تلك المعاهدات التجارية والدبلوماسية التي عقدتها تونس مع المدن الايطالية في الفترة 1300- 1456 م التي اوردها المؤرخ الفرنسي دي ماس لاتري وعددها 19 معاهدة وكالاتي :
6 معاهدات مع جنوة , و7 مع البندقية , و4 مع بيزا , و2 مع فلورنسا .
ومن بين هذه المعاهدات واحدة فقط عقدت مع طرابلس الغرب والبندقية في عام 1356 م , وبين ملك المغرب وبيزا عام 1358 م والبقية كلها مع تونس (19).

وتؤيد ذلك وثائق كتاب العدول الجنويين للفترة 1155 - 1164 م وذلك للفترة 1179 - 1200 م التي درسها المؤرخ الاميركي Krueger في دراسته عن تجارةالمدن الايطالية مع مدن المغرب الاسلامي في القرن الثاني عشر وكماهوموضح في الجدولين 1 و 2 .(20)

لقد أوضحت هذه الدراسة دور جنوة كوسيط تجاري لربط تجارة مدن المغرب الاسلامي من جهة أسواق أوربا الداخلية من جهة اخرى, حيث كانت التجارة الجنوبية تقوم على مثلث رأس جنوة وقاعدته تمتدمن الاسكندرية ـ طرابلس الغرب ـ تونس ـ سبتة في المغرب الاقصى.

كانت جنوة تستورد بعض سلعها التجارية من اسواق الشرق وتعيد تصديرها الى موانئ المغرب الاسلامي ثم تبادلها بسلع اسواق تلك الموانئ لتنقلها الى اسواق المدن الإيطالية، وفي ضوء ذلك , يجب ان نعرف إن تلك السفن الاربع التي ذكرتهم اوراق الجيزة التي غادرت
ميناء الاسكندرية في يوم واحد متوجهة الى طرابلس الغرب على ان تلحق بهم سفينة خامسة في عام 1140 م , لأن تلك السفن تغادر الاسكندرية عادة في اوقات الربيع لملائمة اتجاهات الريح لابحارها .(21)

كانJohn Scribe من ابرز كتاب العدول الجنويين الذي وصلتنا سجلاتهم كاملة للفترة 1155 ـ 1164 م وعكست جهة الاستثمار التجاري الجنوي في تجارة المغرب العربي في فترة تميزت العلاقات الجنوية ـ المغربية بالهدوء

والاستقرار بعدعقد تلك الاتفاقيات مع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي اصبح سيد المغرب الاسلامي بحلول عام 1160 م . ولذلك نرى مندوب مدينة جنوة Ottons bonus di Albericis يتجول في الأراضي الموحدية وقوبل بالترحاب أينما ذهب. وهكذا اصبح التجار الجنويون يتجارون في الشمال الافريقي بأمان وحرية بعدان خفضت الضرائب المفروضة عليهم الى 8% بدلاً من 10% من قيمة تجارتهم .

جدول رقم (1) تجارة جنوة مع موانئ المغرب العربي للفترة 1155 – 1164 (سجل جون سكرايب) بالليرة الذهبية الجنوية..(22)

الموانئ المغربية				الموانئ التونسية ـ الليبية				
السنة	سبتة	الكاربو	صالح	بجاية	تونس	قابس	طرابلس الغرب	باربريا
1155					5			
1156				200				
1157				148	234		72	
1158				106	01			
1159				109				
1160	355			773	60		66	
1161	744			225		88		4
1162	214	16	50	41	66			53
1163	150	296	340	409	227			
1164	220	100					4	
المجموع	1683	412	390	2529	518	88	142	57
مجموع الاستثمار للفترة 1160 – 1164 = 2542 ليرة				مجموع الاستثمار للفترة 1155 – 1559 = 875 ليرة مجموع الاستثمار للفترة 1160 – 1164 = 2686 ليرة				

Krueger , H.C. Op , cit , pp. 380– 385.

ويظهر من الجدول (1) عدم وجود رحلات بحريةتجارية غرب ميناء بجاية الجزائري قبل عام 1160 م , وان الرحلات التجارية لجنوة كانت تتجه نحو تونس , طرابلس الغرب , وبجاية وذلك لعدم توصلها الى ذلك الاتفاق مع الموحدين الذي ذكرناه آنفاً, ولربما بسبب تفشي مرض الطاعون الاسودفي تلك البلدان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما يذكر Amari .(23)

كما يوضح ذلك الجدول إن بجاية من اكثر الموانئ المغربية تردداً من قبل الجنويين في الفترة مابعدعام 1155 م . فمن بين 6100 ليرة حجم الاستثمار الكلي لتجارة جنوه مع بلدان المغرب العربي لتلك الفتره كانت حصه بجايه 2529 ليره ذهبية , أي بنسبه41,45%؛ 1638 ليرة ذهبية مع سبته , أي بنسبه 26,29%؛ ومع تونس 802 ليره , أي بنسبه 2,32% ؛ ومبلغ ضئيل مع طرابلس الغرب قدره 142 ليره ، أي بنسبه 2,32% , وهذا بعكس الموقع الثانوي لمدينه طرابلس في التجارة الجنوبية آنذاك .بالأضافه لذلك ,فان تلك الارقام توضح الحجم المحدود لتجارة جنوه مع بلدان المغرب العربي , وتجذب اولئك التجار من اصحاب الاستثمارات التجاريه المتوسطة والصغيره الحجم , على عكس العوائل التجاريه الثرية صاحبة الاستثمارات الكبيرة في اسواق المشرق العربي.(24)

وتمدنا تلك السجلات بمعلومات ممتازه عن الفترة 1179-1200م عن حجم الاستثمار التجاري لمدينه جنوه مع تلك البلدان تكمل ماجاء في جدول رقم(1) ,حيث استثمر اولئك التجار من خلال 13 رحله , بمبلغ 34,344ليرةوكما موضح جدول رقم (2), وكالاتي :

جدول رقم (2) الاستثمار التجاري الجنوي في بلدان المغرب العربي للفترة 1179-1200م باليره الذهبيه الجنوبيه .المبلغ الكلي :34,344ليره

الموانئ الشرقية للمغرب الإسلامي						الموانئ الغربية للمغرب الإسلامي			
السنة	أفريقيا	طرابلس	تونس	بجاية	باربريا	تلمسان	وهران	مراكش	سبته
1179				149		33	33		995
1182			250	364					2255
1184			222	444				377	1357
1186			583	380			05	10	2331

	86								1190
7250	3210	430		117	2544	1901	466	210	1191
673	330	668			1191				1192
						110		110	1195
1731	98				109	26			1197
1177	108			62	323	20			1198
				80	645	20			1200
18472	4121	1234	33	319	6147	3132	466	320	المجموع
مجموع الموانئ المغربيه 24,179ليره				مجموع الموانئ الشرقية:10,165ليره					
34,344 ليرة				المجموع الكلي للاستثمار					

Source. Krueger. H.C. OP. Git. PP. 359-370

ويظهر من الجدول (رقم 2) موقع مدينة طرابلس الغرب كميناء تجاري بالمقارنة مع موانئ المغرب العربي , ففي الوقت الذي استثمر الجنويون مع ميناء سبته مبلغ 18,472ليره , أي مايساوي 53,78% من الحجم الكلي لذلك الاستثمار البالغ 34,344ليرة, ووبجاية حوالي 17,89%,ومراكش 11,99%,وتونس9,1%, لم تحضل طرابلس الغرب الا على 1,35% وان عزوف الجنوبين عن الاستثمار في اقليم طرابلس الغرب ربما بسبب النزاعات المحليه التي شهدها ذاك الاقليم , اذ يذكر التجاني تبدل الاسر الحاكمه هناك((ولما انفصل العبيديون الى مصر وتركوا الصنهاجين بافريقية , استولى بنو خزرون الزناتيون على طرابلس, وكانت بينهم وبين الصنهاجين وقائع كثيره .... ولم تنزل بأيدي الزناتيين الى سنه 504هـ ,اذ كانت في تلك السنه شدة عظيمة ومجاعة هلكت فيها الناس وفروا عن اوطانهم ...))(25)

أن ما يؤخذ على سجلات كتاب العدول الجنوبين انها لاتذكر لنا انواع السلع التي تكون تلك التجارة مع بلدان المغرب العربي ,انما تذكر قيمه كل عقد , واسماء اولئك التجار الذين يشتركون في تلك العقود . غير ان بعض الاشارات المتناثره كتلك التي ذكرت التاجر الطرابلسي ابو يحى ووكيله في جنوه المدعو أميكو زوسترو الذي استلم من أبي يحى مبلغا من المال ليقوم بتحويله إلى بشقيق أبي يحى المقيم في صقليه ,الا ان ظهور بعض العراقيل حالت دون ذلك ,فأعاد مقابل ذلك المبلغ سته قناطر من النحاس (650كغم) في عام 1166م,(26). وهذا يشير بوضوح ان النحاس كان سلعه رأسمالية مطلوبة في طرابلس الغرب .

يبدو ان تجاره طرابلس الغرب لم تقتصر على جنوه فقط , بل تشير بعض الاتفاقيات إلى وجود بعض العلاقات التجاريه مع مدينه بيزا , لاسيما في زمن عبد المؤمن الذي يعرف بأسم يعقوب بن يوسف ,اذ تذكر احدى الوثائق وقوع سفينة من بيزا في الأسر من قبل مركب طرابلسي وهي محمله بالحبوب , مما جعلهم يطالبون ذلك الامير بالافراج عنها وفقا لما تنص عليها المعاهدات التي تم الاتفاق عليها بين طرابلس الغرب وبيزا، غير إن نص هذه المعاهدة التي ربما وقعت في الفترة1157 - 1164 م لم تصلنا بعد . وهناك معاهدة اخرى بين المدينتين أبرمت في عام 1168 م عندما كانت طرابلس الغرب(27). قد سقطت تحت سلطة مغامر ارمني يدعى شرف الدين قراقش من من مماليك المظفر تقي الدين بن أيوب أخو صلاح الدين الذي تم طرده من قبل والي المدينة المعين من قبل الموحدين يحيى بن غانية في عام 1187 م .(28)

وفي مطلع القرن الثالث عشر عندما تحسنت العلاقات بين بلدان المغرب العربي والمدن الإيطالية , استطاع أمير أفريقية ابو زكريا عقد علاقات تجارية في عام 1229 م مع البندقية ومع ملك صقلية فردريك الثاني , ثم مع جنوة وبيزا , حيث مكنت تلك الاتفاقيات تأسيس جالية تجارية من الإيطاليين في البلدان التابعة لابي زكريا الحفصي , واصبح لرعاياها التنقل بحرية مطلقة ,وادارة الوكالات التجارية في كل من طرابلس الغرب , وتونس , وقابس , والمهدية , صفاقس . كما اصبح هناك قناصل بتلك المدن في معظم موانئ المغرب العربي التجارية . وعندما خضعت بيزا الى مدينة فلورنسا اصبحت جارها يتمتعون بالمزايا نفسها التي تمتع بها تجاربيزا هناك .(29)

لقد أشارت اوراق الجنيزة الى تلك العمليات في تحويل الاموال وإرسال النقود بين تلك المدن التجارية سواء بين موانئ المغرب العربي و المدن الايطالية من جهة , وبين الموانئ نفسها من جهة اخرى . كانت ترسل الاموال عن طريق الاكياس Purse حيث تعد النقود ونوعها ووزنها مع تفصيلات ترفق برسالة . أما بين الاسواق التجارية البعيدة فيتم استخدام السفاتج لأنها تحتاج الى شبكة من الوكلاء من التجار والصيارفة . في عام 1063 م ارسل احد تجار مدينة طرابلس الغرب ارسل سفتجة (شيكاً) بمبلغ 200 دينار الى الفسطاط , وارسل كيساً بمبلغ 400 دينار الى هناك, ويأمر وكيله بصرفها . (30)

كما تمدنا تلك الاوراق بمعلومات قيمة عن الطرق البحرية التي تربط طرابلس الغرب وبعض الموانئ المهمة كما هو موضح في جدول رقم (3) وحسب المعلومات التي تذكرها الرسائل المرسلة من تلك الموانئ الى جهة الوصول , لاسيما تلك الرسالة التي بعثها احد التجار من طرابلس الغرب حول تلك السفينة التي ابحرت من طرابلس الغرب نحو اشبيلية في الاندلس التي تعرضت إلى الغرق عام 1140م وكان على ظهرها 300 تاجر من بينهم 36 – 37 تاجراً يهودياً , وتم انقاذ واحد الى عشرة من اولئك التجار.(31)

جدول رقم(3) الرحلات البحرية التجارية بين موانئ المغرب العربي و الاسكندرية في القرن الثاني عشر

1	من طرابلس الغرب	إلى	الإسكندرية	25 يوماً	لم تجلب السفينة بضاعةانما وفداً لتهنئة السلطان
2	من الاسكندرية	إلى	طرابلس الغرب	40يوماً	رحلة تجارية في مطلع الربيع وكان القارب ينضح ماءاً
3	من طرابلس الغرب	إلى	اشبيلية (الأندلس)	8-10 يوماً	السير مباشرةً دون توقف
4	من المهدية	إلى	الإسكندرية	35 يوماً	ذكر الكاتب ذلك

					بعد وصوله
5	من المهدية	إلى	الإسكندرية	13 يوماً	سفينتان وصلتا من بالرمو الى الاسكندرية وقارب اخر وصل المالمهدية ب 13 يوماً
6	القيروان /المهدية	إلى	الإسكندرية	25-30يوماً	لقد ارسلتها منذ شهر ووصلت والحمد لله ...

Source : Goitien , S.D. Op.Cit.pp. 325-326 .

واخيراً , وعلى الرغم من وجود تلك العلاقات التجارية بين ضفتي حوض البحر المتوسط , غير ان عمليات القرصنة البحرية كان لها تأثيراً كبيراً على تلك العلاقات بين طرابلس الغرب والمدن الايطالية كما هو الحال عندما قاد احد سكان المدينة في عام 117 هـ / 730 م ويدعى باسم المستنصر حملة ضد صقلية غير ان سفنه قد ضاعت بسبب العواصف.32

وفي الوقت الذي اصدر الامبراطور البيزنطي مرسومه الشهير في عام 971 بتحريم التجارة بالسلع الحربية مع الاسواق العربية , كانت ثلاث سفن محملة بالتجارة في مياه البندقية ومهيأة للابحار اثنتان منها نحو المهدية والثالثة نحو طرابلس الغرب. وفاصدر حاكم البندقية امراً بمنعها من الإبحار(33) . كما قام حاكم طرابلس في عام 1021 م الذي كان يتهيأ لغزومدينة تونس فأجبر السفن الراسية في الميناء لتحميل جنوده وتجهيزاتهم, حيث ترك المسافرين والتجار معلقين في المدينة لعدة اشهر , دون ان يتمكنوا من شحن تجارتهم .(34)

أما اثر الحملة العسكرية (الصليبية) المعروفة بالثامنة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع ضد تونس على العلاقات التجارية مع المدن الايطالية فلا نعرف عنها شيئاً وبحاجة الى دراسة مفصلة . غير ان احتلال النورمان في صقلية لغالبية الساحل الافريقي وتضمنه طرابلس لم يعرقل كثيراً حركة التجارة البحرية حيث يذكر الادريسي الذي كان معاصراً للملك روجر الثاني بأن طرابلس الغرب " اصبحت مدينة مزدحمة بالسكان وغنية " وذلك يرجع ربما الى ازدهار تجارتها آنذاك حيث يذكر التيجاني ان الملك

النورماني روجر الثاني وابنه الملك وليم امتاز بالتسامح الديني وتخفيف الضرائب :

((... انما كان العقد بينهم ان لا يكلفوا المسلمون بشئ مما يخالف دينهم , وذكر اهل الدين بسؤء مما يخالف الدين , فأن رضوا منهم بهذا , و اءلا سلموا البلد وخرجوا عنهم , فعفاهم النصراني من ذلك ...)) (35)

وعلى الرغم من ذلك , نجد بعض الوثائق تشير الى مغامرة عسكرية كانت قد ارسلت من صقلية ضد طرابلس الغرب سنة 668 هـ / 1289م لنجدة الامير عثمان احد امراء الموحدين حاكم المدينة حيث حاصروها لمدة 3 ايام متوالية , ولم تغادر المدينة الابعد اعتراف اهلها بالولاء والطاعة للامير عثمان . كانت تلك الحملة الصقلية بقيادة روجر دي لاوريا الذي يعمل بأمرة الملك خواكيم دي ارغون الذي كان يملك قوة " للتدخل السريع" من اجل الحصول على الغنائم , وبهذه الطريقة استطاع ان يحصل من عثمان امير طرابلس على اموال كثيرة مقابل اعادته الى السلطة في طرابلس . (36).

يبدو مما تقدم إن مدينة طرابلس الغرب مارست تجارياً مهماً و إن كان ثانوياً مقارنة بالمهدية وسبته وبجاية ، وعلى الرغم إن حدود المصادر المتوفرة الآن قد تلقي الضوء على ذلك الدور حتى إن كانت محدودة.

الهوامش

1. انظر المناقشات حول نظرية هنري بيرين حول دور الاسلام في حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى المبكرة في بحث الدكتور فلاح حسن الاسدي المعنون ((الاسلام وتكوين الغرب الاوربي في العصر الوسيط)) مجلة كلية الاداب ,جامعة بغداد , العدد71 (2005) ,ص 385 – 429 .
2. ابن حوقل , صورة الارض (بيروت , 1992) ص 71-72 0
3. ونعني بالعبادلة هم : عبدالله بن الزبير , عبدالله بن عباس,عبدالله بن جعفر ,عبدالله بن عمر بن العاص , وبقيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح , انظر : د. احمد العبادي في تاريخ المغرب والاندلس , بيروت ,لا.ث . . ص 26 .
4. التجاني , ابو محمد عبدالله بن محمد بن احمد , رحلة التجاني قدم لها العلامة حسن حسني عبد الوهاب ,(تونس – ليبيا , 1981) , ص 239 – 240 .
5. ابن حوقل , المصدر السابق ، ص 25 – 26 .
6. عن مكانة طرابلس الغرب في قوافل الحج المغربي , انظر , د. وجدان فريق عناد ,"قوافل الحج المغربي " , رسالة دكتوراه غير منشورة , كلية التربية ابن رشد , جامعة بغداد , 199 , ص 125 .

7. محمود , ابو حامد , ليبيا في التاريخ , طرابلس الغرب , 1968 , ص 131 .
8. فشيكة , مجمود بن مسعود , تاريخ ليبيا العام من القرن الاول الى العصر الحاضر , (طرابلس , 1951) ص 58 – 59 .
9. بوفيل , ي , تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير , ترجمة د. الهادي بو لقمة ود. محمد عزيز (بنغازي ،1988) ص 57 – 58 .
10. الفيتوري , احمد سعيد, ليبيا وتجارة القوافل , منشورات الادارة العامة للاثار (طرابلس الغرب, 1972) ص18 .
11. الحشائشي , محمد بن عثمان , جلاء الكرب عن طرابلس الغرب (بيروت 1965) تحقيق علي مصطفى المطراتي، ص 82 .
12. البكري , ابو عبيد الله , معجم مااستعجم , قسم المغرب في ذكر بلاد افريقية ،والمغرب ص7.
13. ابن حوقل , المصدر السابق ص 72 .
14. الحشائشي , المصدر السابق , ص261 .
15. جواتينين , س.د. دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية , ترجمة د. عطية القوصي , (الكويت 1980) ص 233 .
16. رايت , جون , تاريخ ليبيا منذ اقدم العصور , ترجمة د. عبد الحفيظ الميار (طرابلس 1972) ص 96 – 97 .
17. بوفيل , ي , المرجع السابق ص 116 .
18. Carrier ، A "La Vie Privee Du Marchand Bargelona , (Paris, 1975),PP 241-272.
19. سلفادور بونو , العلاقات التجاريه بيت بلدان المغرب العربي وايطاليا في العصر الوسيط . ترجمه عمر محمد الباروني ,مجله البحوث التاريخيه لمركز جهاد الليبيين , طرابلس الغرب , العدد 2 (1986) , ص 329.
20. Kr Ueger, H.C The Genoese Trade With NorthWest Africa In The Twelfth Century, Speculum , No.8(1933),PP.377-395.
21. GOITEN, S. D. A Meditreenean Society VOL II .(Califarnia, 1967),P.212, 317.
22. تعني المصادر الإيطالية بمصطلح باربريا , تلك السواحل المحيطه بخليج سرت الكبير والصغير , وبمصطلح افريقيا بالساحل الواقع مابين وهران وبجاية في الجزائر الحالية.
23. انظر: ارماندو ستيربلا : "انماط تجارة امالفي مع العالم العربي قبل الحروب الصليبيه " ترجمه : د. فلاح حسن الاسدي , مجله الدراسات تاريخية , بيت الحكمه , العدد 15 (2007) اذ يشبر ان فترة انتشار الطاعون الاسود الاكثر

رعبا وتكراراً هي في فترات 1004-1022م ,1033-1043م, 1040_1042م....الخ

24. Krueger, H.C. Op. Crt. PP . 351-355.
25. التجاني المصدر السابق , ص 241.
26. بونو , سلفاثوري , المرجع السابق ص 317.
27. مانغروني , كاميللو , العلاقات البحريه بين ليبيا وايطاليا: تاريخ البحريه الليبية , ترجمه د. ابراهيم احمد المهدوي .(منشورات جامعه قاريونس ,1992). ص 43.
28. المرجع نفسه , ص44.
29. المرجع نفسه ص45-46.
30. Goithen, S.D. Op. Crt. VOL.II, P. 245.
31. IBICL. PP.306, 221.
32. مانغروني كاميللو المرجع السابق , ص36.
33. هايد, ف, تاريخ التجاره في الشرق الادنى في العصور الوسطى , ج1, ترجمه احمد محمد رضا , (القاهره , 1985)ص 113.
34. GOITIE, S. D. OP. CIT.P.331
35. التجاني المصدر السابق ,ص241-242.
36. مانغروني , كاميللو , المرجع السابق ,ص.47